

## الفصل الرابع

### الأصول العربية لمصر

البدو هم العرب الرحل الذين أطلق عليهم هذه التسمية لأن البادية موطنهم، أو بمعنى أدق: "استبس شبه جزيرة العرب والشام والعراق".

أما الاسم العرقي للبدو فهو "أعراب" أو "عرب". ولقد اتخذ اسم "عرب" في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى العصر الفاطمي، معنى "بدو" أو "عرب الصحراء"، في مقابل غيرهم من العجم والتركمان والترك... إلخ. وابتداء من العصر الأيوبي وخاصة في العصر المملوكي، وتحت تأثير العناصر التركية المتفوقة في مصر أصبحت هذه الكلمة "عربان"، وكانت تعني وقتئذ الرحل ذوي الأصل العربي، والذين كانوا يتواجدون على تخوم صحاري مصر بمحاذاة النيل، وكان هؤلاء العربان يمثلون كتلة ضخمة من السكان، بحيث كان من الصعب التمييز بينهم بمعيار الأنساب وانتمائهم سواء لليمنيين (القحطانيين) أو للقيسيين (العديانيين) أو للبربر. وكان هذا هو السبب الذي دعا معظم مؤلفي العصر المملوكي العرب إلى تسميتهم بمرتهم "العربان" ولم يميزوا بينهم إلا عن طريق انتمائهم إلى مكان ومحل إقامتهم؛ فرأينا في مؤلفاتهم ذكر "عربان الشرقية" أو "عربان منفلوط... إلخ.

ولقد عمل بعض البدو ممن مالوا إلى الاستقرار بفضل مياه النيل وما تجلبه من خير للبدوي، يتمثل في وفرة المراعي، على تكوين عدة أرباض بدوية لهم، حيث عاشوا تحت خيامهم المصنوعة من الوبر، وكانوا في هذه الحالة يعرفون باسم "عرب الخيش"، أو بين "أربعة جدران"، وكانوا عندئذ يعرفون باسم "عرب الحيط"، وتعتبر عملية استقرار أو تحضر Sedentraization البدو هي العامل الرئيسي لانتمائهم في الشعب المصري، ولذلك فإن هذه الدراسة لا تنصب إلا على البدو، أي حتى أن يصلوا إلى نقطة الاستقرار والتحضر، وبمعنى آخر طالما

أنهم ما زالوا يشعرون بأنهم بدو وبأنهم ما زالوا متخلفين بخلق البدو وعاداتهم.

إن بدو مصر لا يمثلون في الواقع سوى جزء من مجموع بدو العالم الإسلامي بأجمعه، ولكن معرفتهم تشكل - لا محالة - بعداً جديداً في تاريخ هذه المنطقة، حتى إذا لم يتعد هذا سوى الإمكانات الهائلة التي ستتاح لنا عند معرفة أسماء قبائلهم ومختلف بطونهم، وما سيعود منه ذلك بالفائدة على الدراسة الخاصة بأصول أسماء المواقع الجغرافية (الطوبونيميا) Toponymy في مصر، وتلك الخاصة بدراسة أصول اللقب Patronymic.

ومع هذا، وحتى الآن، فإن بدو مصر لم يوضعوا موضع الدراسة، لا بطريقة متعمقة ولا في مجموعهم، في الوقت الذي حظيت فيه جماعات البدو الأخرى في العالم الإسلامي بدراسات متعددة، وربما يتساءل المرء لماذا؟ ربما كان هذا راجعاً إلى أنه موضوع على جانب كبير من التعقيد، بالإضافة إلى صعوبة وتشتت معلوماته وتأثرها في خضم هذا البحر الكبير من كتب الأدب والتاريخ وغيرها من المؤلفات التي قد تعالج موضوعات بعيدة كل البعد عن البدو أنفسهم، وربما أرجعنا ذلك إلى طبيعة وجودهم ذاته، وما يتصف به من صعوبة في الإمساك به أو إدراكه، ربما كان هذا أو بعضه هو الذي صد العلماء والباحثين عن الخوض في هذا الموضوع، ومع هذا فإن دور البدو دور لا يستهان به في الحياة المصرية، ولا بد للمؤرخ الحديث من أن يأخذهم في الاعتبار لكي يستطيع إلقاء الضوء على النواحي المظلمة، ولسد النقص في معلوماتنا عن تاريخ مصر في قلب العصور الوسطى، إن مركز الاهتمام الرئيسي لدراسة المجال الجغرافي للبدو في مصر هو توزيعهم، ولسنا في حاجة إلي أن نوضح مع ذلك أن حالة الارتحال في حد ذاتها تستلزم غياب حدود ثابتة أو حتى معينة عند القيام بهذا التوزيع، فقد بدأ كل شيء من الفسطاط، ثم في شبة بقع متتالية من الزيت، أنشأ البدو لأنفسهم على حدود الصحراء وعلى ضفتي النيل في الوجهين البحري والقبلي، عدة تكتلات

بدوية كاملة، وهنا أصبح تركز البدو يشكل مساحات واسعة في الشرقية والبحيرة، وعلى الساحل الشمالي الرملي، وعلى الشريط الشمالي الغربي المسمى "الجفار" وفي الصحراء الشرقية، وفي واحات الصحراء الليبية وحتى برقة، وكان من نتيجة توسع البدو وانتشارهم على رقعة الحدود المصرية أن نلجأ إلي التقسيمات الإدارية للبلاد حتى نتمكن من حصرها أو لا لكي نتفهم كذلك بعض الوقائع التاريخية التي شارك البدو فيها، ومن الناحية الزمنية فإن دراستنا عن البدو في مصر تبدأ من وقت فتح هذا البلد على يد الجيش العربي بقيادة عمرو بن العاص، وهذا العهد الجديد الذي بدأ في مصر يتزامن مع تدفق البدو عليها، وهو تدفق لن تضعف حدته أو تخف طوال عصر الولاة (٢٠)هـ إلى (٢٥٤)هـ حيث قام معظم الولاة باستدعاء أهلهم وعشيرتهم ليكونوا لهم عزوة، وكانت القبائل تلبى هذه النداءات بدقة طبقاً للعادات القبلية، وتصل إلى الأراضي المصرية، ولم يتوان بدو مصر في اتخاذ المواقف حيال تغير الخلافة والخلفاء، أمويين كانوا أم عباسيين، وما يستتبع ذلك من تبديل أو عزل للولاة في مصر، أضف إلى ذلك المشاحنات مع السلطة التي أوجدتها الصعوبات الناجمة عن جباية الضرائب، وكذلك الخلافات الداخلية المتعددة التي حدثت بين تلك القبائل مع بعضها البعض، ولقد كان الموقف الحيادي والمسال الذي اتخذه الطولونيون (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ)، والإخشيديون (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) حيال البدو، قد شجع على زيادة عددهم في مصر، وكانت فترة حكم الفاطميين طوال قرنين من الزمان (٣٦٢ - ٥٦٨ هـ) هي أغنى فترة في تاريخ البدو في مصر، وكان دخول القبائل وخروجها، فالمشاحنات والمؤشرات التي حدثت، تظهر بجلاء الدور الذي قام به البدو في مصر في ذلك الوقت وتكشف عن أهميتهم ومكانتهم، أما عن الأيوبيين (٥٦٥ - ٦٤٨ هـ) فقد أولوا عنايتهم وتقضيلهم للأجناس الأخرى كالأكراد والتركمانيين على وجه الخصوص، وهو ما سيؤثر في إضعاف مكانة البدو إلي حد ما، كما أن عداة البدو الظاهر حيال السلاطين المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ) سيجر عليهم الوبال وسينجم عنه تدهور واضح لمكانتهم، إلى

درجة انهيارهم واضمحلالهم، كما سيدفع الباقين منهم إلي أن يلونوا وأن ينزلوا في أقصى صحاري البلاد، ولما كانت النواحي الاجتماعية والاقتصادية لبدو مصر من أهم الموضوعات التي سنقربنا من أصولنا العربية، فقد درسنا أحوالهم الاجتماعية: تنظيم مجتمعهم وقيامهم ومعيشتهم وزواجهم وأفراحهم، والمكاتبات التي ترسل إليهم من السلطان.... إلخ، ثم تعرضنا لاقتصادهم البدوي الذي لم يقتصر كما سنري على الرعي وتربية الأغنام، بل تعداه إلى الزراعة والتعدين، وتوريد الخيول العربية الأصيلة للسلطان، ولأغراض البريد، وخفارتهم للطرق<sup>(١)</sup>.... إلخ، مما كان سببا في غناهم وثروتهم، وإقطاعهم الإقطاعات الواسعة من قبل السلاطين كل ذلك أدى إلى انتقال اقتصادهم البدوي المغلق إلى اقتصاد شبه مفتوح على عامة المصريين،

وقد أثرنا هذه النواحي الاقتصادية ببحث يجمع بين أطرافها ويستخلص نتائجها المتكاملة، تلك هي الموضوعات، وهذا هو الإطار الجغرافي والتاريخي لدراسة الأصول العربية في مصر في العصور الوسطى، وسنحاول في أثناء هذا البحث أن نتمق في كنهها وفي استخلاص نتائجها.

\*\*\*\*\*

(١) يعني: حمايتهم وحراستهم لها.